الفصل الثانى
الطرح الإسلامى

قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة].

قال رسول الله ﷺ: « أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم »(١).

---

(١) رواه أبو الحسن التميمى من مفتىّ الحنابلة فى العقل له عن ابن عباس من طريق أبى عبد الرحمن أيضا بلفظ: « بعثنا معاشر الأنبياء نخاطب الناس على قدر عقولهم »، وله شاهد عن سعيد بن المسيب مرسلا بلفظ: « إنا معشر الأنبياء أمرنا »... وذكره. ورواه فى الغنية للشيخ عبد القادر قدس الله سره بلفظ: « أمرنا معاشر الأنبياء أن نحدث الناس على قدر عقولهم »، وفى صحيح البخارى عن على موقوفا: « حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله ».

ونحوه ما فى مقدمة صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: « ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة ».

ورواه الديلمى أيضا من طريق حماد بن خالد، عن ابن عباس رفعه إلى النبى ﷺ: « لا تحدثوا أمتى من أحاديثى ألا ما تحمله عقولهم، فيكون فتنة عليهم ». فكان ابن عباس يخفى اشياء من حديثه، ويفشيها إلى أهل العلم.

وللديلمى أيضا عن ابن عباس رفعه: « يا بن عباس، لا تحدث قوما حديثا لا تحتمله عقولهم ».

وروى البيهقى فى الشعب، عن المقدام بن معدى كرب مرفوعا: « إذا حدثتم الناس عن ربهم فلا تحدثوهم بما يعزب عنهم ويشق عليهم ». وصح عن أبى هريرة ﷺ: حفظت عن النبى ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم.

وروى الديلمى عن ابن عباس مرفوعا: « عاقبوا أرقاءكم على قدر عقولهم » وأخرج

بمسلمين وأعلنت الحرية بشعاراتها الثلاثة (العدالة والمساواة والأخوة) واستقبل جماعة الاتحاد والترقى استقبال المنقذين ، وهتف الجماهير بحياة (النيازيين) نسبة إلى نيازى ، والأنوريين (نسبة إلى أنور)[١] وكما يقول وليم مللر : « فقد ظلت مقدونيا بضعة أيام تبدو وكأنها جنة الله فى أرضه»[٢] وأعلن أنور بك (باشا فيما بعد) أن « الحكومة المتعسفة » قد اختفت ، وأن الكل إخوان ، فلم يعد ثمة بلغار ويونان ورومانيون ويهود ومسلمون ، وأن الكل متساوون تحت نفس السماء الزرقاء « ونحن نفخر بكوننا عثمانيين » وسجن الضباط الثوريون فى بلغاريا رجلا تركيا لإهانته نصرانيا ، وفى الاحتفال بتشييع جنازة أرمنى اشترك الأتراك والأرمن فى الإصغاء إلى الصلوات التى تلاها رجال الدين النصارى والمسلمون على أرواح ضحايا المذابح الأرمينية ، وأعرب الزعماء العرب المشتغلون بالحركة العربية وممن انتشرت بينهم الأفكار القومية عن فرحتهم بالعهد الجديد ، فافتتح السوريون فى الأرجنتين- وغالبيتهم من المسيحيين المهاجرين - اكتتابا عاما للتبرع بسفينة حربية هدية منهم للحربية العثمانية.

وشكل أهالى بيروت حرسا وطنيا بزعم مساعدة الجيش عند الضرورة[٣].

٢- لم يصف الجو تماما أمام الاتحاديين ، فالفئات التى ناصرتهم أعدادها قليلة نسبيا ، وتكاد تقتصر على الأقليات التى لم تشعر بيوم من الأيام بانتماء حقيقى للعالم العثمانى (الإسلامى) الذى رأت فيه أشبه بجزر وسط محيط إسلامى ، فوجدت فيه هذه الفئات فى الانقلاب الاتحادى فرصتها الأكيدة

---

(١) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثمانى ، ص٣٠ .

(٢)Wiliam Miller : The Othman Empire and its successos uniu Press٠٢٥ univ Press New Haxen ١٩٣٠ .

(٣) محمود صالح منسى : حركة اليقظة العربية فى الشرق الأسيوى ص : ٩٤ القاهرة ١٩٧٢م .

انظر : حركة الجامعة الإسلامية : أحمد فهد بركات الشوابكة ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

إسلامى ، فوجدت فيه هذه الفئات فى الانقلاب الاتحادى فرصتها الأكيدة لتحقيق مصالحها الخاصة وإيجاد دولها القومية .

وفى المقابل كانت هناك فئات كثيرة بين رعايا الدولة العثمانية لم ترتح لما حدث من أحداث فى عاصمة الدولة ، من إعلان للدستور وخلع السلطان الذى كان ينظر إليه غالبية المسلمين على أنه العامل لوحدتهم والمدافع عن ممتلكاتهم أمام هجوم أعدائهم ضمن سياسته فى الجامعة الإسلامية ، وغالبية هذه الفئات هم العلماء ، وزعماء معظم العشائر من مختلف الجنسيات وأتباع الثقافة الشرقية ، والمنادين بالفكرة الإسلامية ، والحريصين على الحفاظ على أصالة الدولة العثمانية ، والغالبية العظمى من جماهير الناس.

ففى استانبول عاصمة الدولة ، رأى جمهور العلماء أن لا داعى لدستور اقتبست أكثر مواده من دساتير غربية ، ما دامت الشريعة الإسلامية قائمة ، خاصة وأن القائمين على أمر الدستور والمناوئين للسلطان هم مجموعة مؤلفة من خليط لا دينى من ترك ومرتدين وروم وأرمن ، عرفوا بكثير من التساهل فى أمور الدين ، والتظاهر بالتفرنج ، والتكلم بما يخالف الشرع ، وترديد ألفاظ الوطنية التركية والقومية الطورانية ، وكل هذا يتعارض مع الشريعة الإسلامية ، ومع الجو العام السائد فى الدولة العثمانية منذ مئات السنين[١].

وتكتل المعارضون للوضع الجديد بمختلف مستوياتهم فى تجمع أطلق عليه اسم « الجمعية المحمدية » كان يرأسها شخص يسمى « درويش وحدتى » وأنشأت الجمعية جريدة باسم « وولقان » أى: البركان ، التى توالت الدعوة إلى أفكار الجمعية وهاجمت الاتحاديين ووصمتهم بالإلحاد والماسونية [٢].

ومنذ الأيام الأولى التى تلت إعادة الدستور ، أدركت لجنة الاتحاد والترقى قوة الشعور المناوئ لها حينما ثار الجنود فى أدرنة فى وجه ضباطهم ، وأصروا

---

(١) صادق آل بايراق : السائرون والمنفيون فى سبيل الشريعة ص ٨٧ .

(٢) محمد كرد على : مذكرات محمد كرد على ١ / ١٧٥ . رضا فور : مذكراته ، مجلة المجتمع الكويتية ع ٥٣٤ تاريخ ٢٠/ ٦/ ١٩٨١م .

على إرسال وفد منهم إلى استانبول ليؤكدوا للسلطان ولاءهم ويعربوا عن استنكارهم لحركة الاتحاديين.

وفى ألبانيا كان الاحتجاج عنيفا ضد الانقلاب الاتحادى ، وأصبح الهياج على أشده بين مسلميها ، وأخذ الناس يتساءلون عما دعا إلى كل هذه الحركة ، وطالبوا بمعرفة الأسباب الشرعية التى خولت فتيان الترك خلع السلطان عبد الحميد فهم (أى: الألبانيون) غير راضين عن عمل محمود شوكت باشا والجيش المقدونى ، ويخشى أن يكون تصرف الاتحاديين تمهيدا لنكبة فى الإسلام وهم يؤكدون أن الذين قاتلوا المسلمين عقيب حركة الآستانة لم يكونوا من المسلمين[١].

وقام بعض مفكرى الترك يردون على دعاة الطورانية ، وكان من بين هؤلاء (سليمان نظيف) وهو من الولاة العثمانيين السابقين ، فكتب سلسلة مقالات فى مجلة (اجتهاد) التركية يرد فيها على دعاة القومية الطورانية ، ومما قاله : إن جهاد عبد الرحمن الغافقى هو عندى أشرف وأثمن من المذبحة الملعونة التى قام بها هولاكو فى بغداد عام ٦٥٦ هـ ، وأن مليكنا ليس جنكيزخان ، بل عمر الفاروق ، وإن أحط خليفة أموى هو خير من هولاكو وأجداده.

ذلك لأن العرب هم الذين أرشدونا إلى سواء السبيل ، وهم أساتذتنا المحدثون ، بل هم كل شىء بالنسبة لنا ، حتى إذا أعدنا للعرب ما أخذناه منهم فلا يبقى لدينا إلا جبة ذات أكمام طويلة[٢].

امتد الشعور المعادى للاتحاديين والموالى للسلطان عبد الحميد وسياسة الإسلاميين ليشمل كافة الولايات العثمانية ، ففى سوريا قوبل الانقلاب الاتحادى وإعلان الدستور بحذر شديد ، وبذل زعماء سوريا جهدهم للتخفيف من آثار رعاية الجمعية الاتحادية ، وأخذ السواد الأعظم من أهالى سوريا يبكون وينحون جاعلين هذا الانقلاب دالا على ذل الإسلام والمسلمين[٣].

---

(١) مجلة نهضة العرب (باريس) ١٤ / ٥ / ١٩٠٩م .
(٢) حركة الجامعة الإسلامية ، مصدر سابق ص ٣٢١ ، ٣٢٢ .
(٣) المقتطف م ٣٥ ج٤ أكتوبر ١٩٠٩م ، ص٩٤ .

ولما نقل أحد المدرسين فى مدينة اللاذقية خبر خلع السلطان مشفوعا بإهانته له وتنظيم جمعية الاتحاد والترقى نقل الطلاب الخبر إلى ذويهم ، فتجمع الأهالى وساروا إلى منزل المدرس يريدون القبض عليه ، ففر إلى منزل رجل فرنسى ولحقوا به إلى هناك ، وطلبوا أن يسلم إليهم بإلحاح شديد ، إلا أنه تمكن من الهروب والنزول فى قارب نقله إلى باخرة فرنسية . وظلت الأفكار هائجة على جمعية الاتحاد والترقى وبقيت النقمة على رجالاتها شديدة[١] .

ولقد أجمع كبار الموظفين فى سوريا على عدم التعاون مع الاتحاديين وعلى رأس هؤلاء الموظفين متصرف اللاذقية عبد اللطيف باشا ، وتضامن معه كل من القاضى الشرعى رئيس العدلية الأول عمر لطفى أفندى ، وكبير قادة الجيش الميرالاى شريف بك ، وكذلك معظم رؤساء الدوائر الحكومية[٢] .

وظل أهل العراق على ولائهم للدولة العثمانية ، وارتباطهم بالخلافة وميلهم الشديد للسلطان عبد الحميد ، حتى أن الكثرة لم ترتح لأحداث الانقلاب الاتحادى وإعلان الدستور وخلع عبد الحميد ، واعتبروا ذلك مضعفا لسطوة وهيبة الخلافة...إلخ .

ولم يختلف حال البصرة عن بغداد ، إذ بقيت هادئة ساكنة ، واستقبلت أنباء إعلان الدستور بالاستغراب وعدم الاكتراث .

أما الموصل والتى غلبت عليها النزعة الدينية أكثر من غيرها[٣] ، فقد زاد النفور بين أهلها وبين الاتحاديين خاصة على أثر الزيارة التى قام بها وفد من جمعية سلانيك الاتحادية للموصل ، وإلقائهم خطبا وصف بأنها بعيدة عن الكياسة واللياقة . فيها موالاة لليهود والنصارى وغض من جانب المسلمين ،

---

(١) مجلة نهضة العرب مايو ١٩٠٩م .

(٢) يوسف الحكيم : بيروت ولبنان فى عهد آل عثمان ص ١٦٢ .

(٣) يصف سليمان فيضى أهل الموصل وقد جاءها موفدا من جمعية البصرة الإصلاحية قائلا: إن المؤمنين بالقضية العربية قلائل ، وإن المشتغلين بها أقل ، وإن النزعة الدينية التى تميز بها أهل الموصل تقف حائلا بينهم وبين التمرد على الدولة العثمانية ذات الصبغة الإسلامية والخلافة المقدسة . انظر كتابه: فى غمرة النضال ص ١٣١ .

ولم يهتم أهل الموصل لأخبار الانقلاب وإعلان الدستور[١] .

ونسب العزاوى إلى عصر الاتحاديين فى العراق الكثير من المفاسد الاجتماعية التى ظهرت وانتشرت بين الأفراد والأسر والجماعات ؛ من ارتكاب للمنكرات ، وانهماك فى الملذات ، وخروج على واجبات الأسرة ، وتوسع الناس فى مفهوم الحرية الفردية ، وخرجوا بها عن حدودها لممارسة أعمال وتصرفات شاذة ، وقل وازع الدين فى النفوس ، وتعددت جرائم السطو والسرقة وانتهاك الأعراض ، وفتحت الحانات والملاهى والمراقص ، وارتادها الشباب مما لم يألفه الناس من قبل أو يعرفوه[٢] . وامتد الشعور المعادى للاتحاديين والمتعاطف مع السلطان عبد الحميد ليشمل المسلمين فى ديارهم النائية ، ففى الهند عكست صحيفة الوطن تحت عنوان « الانقلاب المشؤوم فى الدولة العلية » مقدار تأثر الهنود المسلمين بهذا الحادث واعتبرته بداية النهاية لدولة الخلافة العثمانية والعالم الإسلامى أجمع ، ونعت الصحيفة للمسلمين كافة سلطانهم وخليفتهم القائم على سياسة الجامعة الإسلامية[٣] .

ووصفت صحيفة « أبزرود » الهندية الحادث بأنه محفوف بأعظم الأخطار ، وأنه سيؤثر تأثيرا مزعجا فى العواطف الإسلامية من النيجر فى أقصى الغرب إلى الصين فى أقصى الشرق[٤] ، وتأكدت تحفظات مسلمى الهند تجاه الاتحاديين

---

(١) عبد المنعم الفلامى: أسرار الكفاح الوطنى فى الموصل ص ٢١- ٢٢ نجدة فتحى صفوت . العراق فى مذكرات الدبلوماسيين الأجانب ، ص ٧٧ .

(٢) حركة الجامعة الإسلامية ـ مصدر سابق ص ٣٢٢ ـ ٣٢٦ بتصرف ، يحسن العودة إلى تفصيلات الأحداث فى الكتاب المذكور .

(٣) وكما أوردته الصحيفة فى ذلك ، لقد طير البرق إلينا النبأ المشؤوم الذى فتت الأكباد وألبس القلوب ثوب الحداد ، وقد ساد الأسف بمجرد سماعه فى العالم الإسلامى فى الهند وسائر أقطار المعمورة ، ومن التألم الناشئ منه تفتت الصدور . ذلك النبأ العظيم الذى ألم بالعالم الإسلامى بأسره هو نبأ عزل السلطان عبد الحميد من عرش الخلافة والسلطنة . انظر : المنار ، م١٢ ج٤ ص٢٩٨ .

(٤) المنار، م ١٢ ج٤ ص٣٠٢ .

بما لمسوه من تصرفات ممثليهم فى مدن الهند الكبرى من عدم التزام بالفرائض والآداب الإسلامية ، وميلهم نحو الأوروبيين يقلدونهم فى أزيائهم وعاداتهم وحضور احتفالاتهم وعدم الالتقاء بجموع المسلمين وحضور مناسباتهم الدينية[1].

ومن النتائج التى يمكن أن نستخلصها من هذا العنوان ما يلى :

فى المجال الفكرى والسياسى :

انقسم المفكرون فى عاصمة الدولة العثمانية وبلاد الشام إلى فريقين :

الفريق الأول: وهم أصحاب الاتجاه الإسلامى والمنادون بسياسة الجامعة الإسلامية ، الذين رأوا فى الدين وسيلة وتهذيبا خلقيا واجتماعيا وعامل وحدة وتجمعا سياسيا.

ورأى أصحاب هذا الاتجاه أن الدولة العثمانية رغم ما اعتراها من مظاهر الضعف فى أواخر القرن التاسع عشر ، مؤهلة أكثر من غيرها لزعامة العالم الإسلامى ، فهى ذات تاريخ عريق فى العمل على نشر الإسلام وحفظ دياره فى الغرب والشرق ، وهى بحكم موقعها الجغرافى تقف وجها لوجه أمام دول أوروبا الآخذة بأسباب القوة والمتطلعة لفرض سيطرتها على العالم الإسلامى . وهى كذلك موطن الخلافة التى ورثتها بعد زوال دولة المماليك التى كانت

---

(١) عبر أحد علماء الهنود إلى الرحالة العثمانى عبد الرشيد إبراهيم عن موقف الهنود تجاه الأحداث الجديدة فى تركيا بعد الانقلاب قائلا : إن بقاء السيادة الإسلامية رهن ببقاء الحكومة العثمانية ومتوقف على وجودها فى الوقت الحاضر ، لأن أهل الإيمان يرون أن حياتهم موصولة بحياة العثمانيين ، وأن مرجعنا الأوحد هو الدولة العثمانية ، ولكن مع الأسف لم يبق للأتراك علاقة مع الدين ـ يقصد الاتحاديين ـ ونحن نرى أن الشاه بنادر (ج شهبندر ويقصد الممثل العثمانى) العثمانيين الموجودين عندنا لا يمسكون (الصيام) ولا يؤدون الصلاة حتى إنهم يخفون كونهم مسلمين وراء قبعاتهم على الرؤوس . وأن شهبندرنا هنا لا يدع قبعته تنزل عن رأسه . وهو مبتعد عن الصلة مع أى مسلم ، انظر: عبد الرشيد إبراهيم : رحلة عبد الرشيد إبراهيم فى العالم الإسلامى ج٢ ص٦١ ، حركة الجامعة الإسلامية : مصدر سابق ص٣٢٥ ـ ٣٢٦ بتصرف .

تحتضن آخر خليفة عباسى.

والفريق الثانى: هم المعادون لسياسة الجامعة الإسلامية والمناهضون للحكم العثمانى ، الداعون لإحلال الرابطة القومية الوطنية بديلا عن الرابطة الدينية .

ووجدناهم فى استانبول ممن أفرزهم عهد التنظيمات العثمانية وأصحاب الثقافة الغربية الذين رأوا مثلهم الأعلى فى نظم الغرب السياسية وأفكاره القومية والوطنية .

وفى بلاد الشام كان غالبيتهم من النصارى الذين كانوا ينظرون إلى الحكم العثمانى وطبيعته الإسلامية على أنه استمرار للعهود الإسلامية المتتالية التى كان ينظر فيها إلى غير المسلمين على أنهم أهل ذمة ، وهم ملزمون بمظاهر سلوكية تشعرهم بأنهم أدنى درجة من مواطنيهم المسلمين كدفع الجزية ، وعدم قبولهم فى الخدمة العسكرية ، ورغم أن مثل هذه المظاهر قد اختفت كلها أو جلها بفعل التنظيمات العثمانية وأصبحت مجرد ذكريات تاريخية ، لكن آثارها النفسية لا زالت تعمل عملها ، مما أشعر هؤلاء بأن الحكم العثمانى بطابعه الإسلامى يتعارض مع مظاهر العزة القومية والوطنية لديهم.

هذا إلى جانب ما أحدثته الثورة الفرنسية ومفكروها من تفجير لمبادئ الوطنية والعزة والقومية القائمة على مبدأ اللغة والجنس ، مع استبعاد عامل الدين الذى جمع العديد من القوميات والأجناس فى كيان سياسى واحد ، ونادى هؤلاء بعزل الدين عن مجال الحياة العامة ، وأن يكون مجرد نشاط فردى وفى حدود العبادة الخاصة .

وأن تكون الوطنية والقومية هى العامل فى إعادة تشكيل الخريطة السياسية للمنطقة العربية ، وراجت هذه الأفكار نفسها فى مصر غلبة دعوى الوطنية

على القومية ، وكان الوجود البريطانى يدعمها ويغذيها[١] .

توسعت فى الحديث فى هذا الباب ، وذلك لأن هذين الاتجاهين اللذين برزا بوضوح عقب الخلافة العثمانية قد عطيا تماما كل التحركات الفكرية والعقائدية التى سادت عالم المسلمين بعد ذلك ؛ سواء ما كان تحت سلطان الدولة العثمانية أو خارجة ، وارتبط كل مفكر بما رآه يحقق ميوله ، ولو أن الأسماء كثرت وتشعبت لكن المجال ما زال إيمانا وكفرا .

لقد انزوى تحت ظل التوجه الإسلامى الكثير من المسميات والحركات والأفراد والدول ولكن يجب ألا نغفل الملاحظات التالية :

١- انهزم الفريق الأول (الاتجاه الإسلامى) انهزاما بالغ الأثر ، وذلك بسبب سقوط الدولة العثمانية التى لم تتكمن أن تثبت أمام الاتجاه الثانى ، على الرغم من أن العدد الأكبر من المسلمين ينضوون تحت ظل هذا الاتجاه ، ويشمل المسلمين على اختلاف مواقفهم إلا ما كان من بعض الفرق الباطنية التى وجدت مع الفريق الثانى مبررا لوجودها وعودتها إلى التحكم ثانية فى بعض المواقع من العالم الإسلامى .

ولقد كان الفريق الثانى يضم أعدادا من الأقليات الدينية (يهود ونصارى وطوائف باطنية إسلامية) وبعض المتأثرين بالغرب والحضارة الغربية ، ويؤيدهم القوى الأوروبية فى ذلك الوقت والشيوعية لاحقا والولايات المتحدة والصهيونية العالمية حاليا مع استمرار تأييد أوروبا لهم وبشكل دائم .

٢- انتصار الفريق الثانى كان حاسما وقويا ، ولقد استخدم بعد تمكنه كل

---

(١) حركة الجامعة الإسلامية ، مصدر سابق ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

ما يمكن استخدامه من أسلحة فتك وقتل وتشريد وتشويه فى ظل التجزئة التى تمكن بها أولئك من أن يضعوا أيديهم على الحكم مباشرة أو من وراء ستار ، وحولوا دولا كاملة ليحكموا فيها مباشرة أو بواسطة عملائهم ، واستمرارية التجزئة ، وتغيير الشعارات بين الحين والآخر وجر الشعوب إلى الإيمان بها واعتناقها بعد أن جردت الشعوب من أسلحتها حتى مجرد اللسان وأبسط حقوق الإنسان ، وزودت القوى الأخرى بكافة الأسلحة المادية والمعنوية والتأييد من القوى العظمى ، وفقدان المرجعية بأبسط أشكالها للمسلمين الذين لا يملكون أى سلاح رادع من أى نوع كان .

كان القرن العشرون مسرحا لهذه الأحداث كلها ، ولما لم تجد قوى الفريق الثانى بدا من فرض وجودها بالقوة فقد اختارت الأنظمة الديكتاتورية وتعطيل الحرية ، والدساتير والقوانين مهما كان فيها من طروحات بسيطة ترعى حقوق الأكثرية وتؤمن بالتالى لهم أدنى مستوى من الحياة ، فالسجون والمعتقلات وساحات الإعدام والنفى والقتل بغير ذنب ، كل هذه الأمور تعتبر ممارسات مشروعة فى ظل هذه الأحكام.

وظل هؤلاء الحكام ، ولم يجرؤ أحد على التطاول على هذه الأنظمة إلا لاستبدالها بما هو أعتى وأقسى منها ، فكانت الانقلابات المتتالية فى الخمسينيات والستينيات من ذاك القرن ، ثم استمر الوضع بعد ذلك لتطول أعمار الحكام وتقوى ممارساتهم حتى أصبح أقل حاكم لا يقبل بأقل من ربع قرن فما فوق ، واعتبر هذا الحال نوعا من الاستقرار والهدوء لم يقدم للأمة العربية ولا للمسلمين غير الهزائم المتلاحقة والتخلف المستمر ، والجهل المطبق ، والفقر المدقع ، رغم تفجر الأرض من تحت أقدام هؤلاء الحكام بالخير والثروة التى لم يتمكن أصحابها من عدها أو إحصاء وارداتهم منها.

وبقى الفريق الأول فى وجه هؤلاء بعد أن تمكنوا منهم فى أوطانهم وأذاقوهم من الذل والقتل والقهر والتشريد ما لم يرد أصلا فى تاريخ هذه الأمة أو حتى أمم محاكم التفتيش.

٢- اختلاف حكام المسلمين:

فى الوقت الذى اختلف فيه حكام المسلمين حول مصالحهم الدنيوية ، واتجاهاتهم الفكرية ، وقضاياهم ومكاسبهم ، فإن الخلاف هذا جر إلى حروب وقطيعة بين الدول الإسلامية ، وقاد إلى تفتيت القوى وإضعاف الإمكانيات ، فإن الأمر قد تطرق أيضا إلى خلاف بين دعاة الإسلام وحملة رايته ، وهذا الاختلاف لم يكن فقط بحدود الطرح أو الوسائل ، ولكن وصل الخلاف للغايات والأهداف وطرق العمل والأولويات ، وهذا ما جعل الطرح الإسلامى أو الخطاب الإسلامى فى كثير من المواقع متناقضا أو متعارضا مع أبسط الأمور التى تجعل التأثير فى الدعاة (الأتباع) وحتى فى عوام المسلمين ، ووجد أعداء الدعوة الإسلامية أو أعداء الحركات الإسلامية فرصا كثيرة لا للطعن فى الإسلام فقط ، ولكن وصل الأمر إلى حد الجرأة على هذه الحركة التى تعاديها تلك الحركة ، وقد استعانت بعض الحركات بحكام وقوى أخرى للحد من نشاط الحركة الأخرى أو القضاء عليها .

إن هذا الأمر مع كل السلبيات التى حلت ونتجت عن ممارسته ، فإنه يمكن أن يحتمل لعدم وجود المرجعية المحدودة للحد من هذه الخلافات . فى التاريخ الإسلامى أمثلة كثيرة استعان بها فريق على فريق ، وحدثت فتن كبيرة كان ضحاياها من أكابر علماء الأمة.

فقد امتحن كثير من أئمة المسلمين وعامتهم من جراء ذلك . لكن نحب أن

نسلط ضوءا على قضية ربما غابت عن أذهان الكثير من المراقبين أو حتى الدعاة أنفسهم ، وهو أن الإسلام ينفى خبثه كالبحر يلفظ كل شىء غريب عنه ، فمع العدد الهائل من الفرق التى تمكنت فى حقب مختلفة من التاريخ الإسلامى من السيادة والسلطان ، وحيازة أسباب القوة والنصر.

لكن الإسلام تمكن من نفيها وتحجيم طرحها وفكرها وجنودها ودولها وفى الاتجاه الآخر فقد تمكنت هذه الفرق من اضطهاد علماء الأمة ومفكريها ، لكن كان النصر أخيرا للإسلام المعروف بإسلام أهل السنة والجماعة[1] ، فالاختلاف ليس مخيفا إلى هذه الدرجة ، وهذه أمور مقررة فيما أخبر عنه رسول الله ﷺ عن خلاف أمته إلى ثلاث وسبعين فرقة منها الفرقة الوحيدة الناجية التى لا تجتمع على ضلال وهى التى تمثل غالبية المسلمين فى العالم .

ليس المقصود هنا الخلاف فى الاجتهادات الفقهية عموما ، ولكن الخلاف الآن بالأيديولوجيات والطروحات والخطاب المرتقب أن يطرحه الدعاة على الناس عامة ، وهذا الاختلاف لا نستطيع أن نتجاوزه ونغمض أعيننا عن نتائجه ليس فقط فى أرض المسلمين ، ولكن حتى فى الدعوة خارج هذه الأرض ، وسنوضح ذلك بالمواقف والمواقع .

ملاحظات :

١- قدرت الأعداد تقديرا على أن سكان العالم الإسلامى والأقليات

---

(١) انظر كتابنا : مدخل لدراسة الإسلام والمذاهب المعاصرة . فقد أجريت إحصائية تقريبية لاتباع المذاهب فى الإسلام فكان أهل السنة والجماعة يعادلون ٩٠٪ وبقية الفرق الإسلامية والمذاهب ١٠٪ تقريبا . رغم أن الإسلام المقصود الآن بالتحديد هم أهل السنة والجماعة .

الإسلامية البالغين تقريبا ١٥٠٠ مليون نسمة وفى مختلف أنحاء العالم عام ١٩٩٩ .

٢- الأعداد تقريبية ، وباعتبار أن المذهب يؤخذ من الأباء والأجداد .

٣- الكثير- خاصة عند أهل السنة والجماعة - يعملون بالمذاهب الأخرى دون تكليف أو شعور بالتقصير .

والكثير من المسلمين قد لا يتقيدون بحرفيات المذاهب .

الخلاف له سلبياته الكثيرة ، ولعل أشدها هو عرض الإسلام ذاته بعد أن تمكنت الأفكار الوافدة من أن تحتل حيزا واسعا من أفكار الناس ، سواء فى مجال الحكم (الديمقراطية ، ومجالس النواب، والرئاسات، والأحزاب غير ذلك) أو فى مجال الدعوة نفسها ، فى الحيز الاجتماعى خاصة فى الحيز التعليمى والإعلام.

وكيف نستطيع أن نقدم إسلامنا الذى أنزله الله تعالى للناس كافة والأزمنة كلها ؛ نقدمه بالأسلوب الذى يقنع الآخرين ، واستخدام الوسائل المتاحة الآن للدعوة إليه ، خاصة وإننا فى دوامة التعامل مع الإعلام أو رفضه كلية.

وقد وجد وبشكله الحالى الذى يعتبر من أكبر القضايا الفكرية تحديا للإسلام وللمسلمين .

ومن سلبيات الاختلاف:

توزع القوى وتشتيتها ، وبعثرة إمكاناتها وتحطيم عطاءاتها ، خاصة وأن الأمر وصل فى بعض حالاته وربما عند العوام إلى تسفيه الرأى ، والطعن بالإنجازات ، والتفويت على الدعاة الفرص المتاحة الآن خاصة وأن الأفكار الأخرى قد تساقطت الواحدة تلو الأخرى ولم يبق إلا الإسلام فى ساحة الفكر

والعطاء .

ومن سلبيات الاختلاف أيضا ، عدم تقديم الإسلام بالقالب الصحيح الذى ارتضاه الله تعالى لعباده ، بعد أن تهيأ لهذا التقديم كافة الوسائل الممكنة والتى تباطأ المسلمون عن الأخذ بها ، كمحطات الفضاء والإنترنت والصحف العالمية وغيرها من الوسائل المتاحة ، والتى لم تمنع عن المسلمين أو تحد من نشاطاتهم.

ولكن موضوع الاتفاق ضرورى فى مثل هذه الحالة .

وقد لا نستطيع أن نوحد دعاة الإسلام ليكونوا فى منهج واحد وصوت واحد ، ولكن قادرون بإذن الله أن نخفف من حدة الخلاف على الأقل ، ونتفق على أسس موحدة بسيطةلا تناقض فيها ولا تباعد.

فالدين واضح ومنهج الرسول ﷺ واضح ، وقد قدمه لنا علماء أمتنا سواء فى الماضى أو اجتهادات الحاضر بالشكل المطلوب تقديمه للناس ، وحتى يمكن لنا أن نخفف من حدة الاختلاف.

نستطيع وبكل بساطة أن نعتبر أن كل عامل للإسلام جندى معبأ ضمن الجند الشجعان.

ومنهم الأقوياء ومنهم الضعفاء ومنهم الأذكياء ومنهم غير ذلك ، ولكنهم جميعا يرتدون لباس الجنود ويدخلون المعارك مع بعضهم البعض ، وينتصرون وينهزمون مع بعضهم أيضا.

والقيادات هى التى تستطيع أن توحد المفهوم العام للدعوة والاستجابة ضرورية حتى يمكن لنا أن نقدم للناس خطابا موحدا ليس فيه تناقض ، ويجرى مجرى التنسيق والاحترام المتبادل.

ليست هذه المقولة جرعة دواء تعطى للمريض ، ومجرد القول يقود إلى التوحيد والتوفيق ، فطبيعة الناس الاختلاف لكن إيجاد الوسائل لهذا التوافق غير معجز ، والله تعالى خاطب الناس كافة كما سيرد لاحقا ليكونوا مؤمنين بإشارات واضحة وجلية حتى يمكن أن يكون العطاء أكثر فهما وأكثر جدية.

٣- نهاية القرن العشرين :

فى حقبة التسعينيات من هذا القرن حصلت انقلابات مذهلة لم يكن لنا فيها يد ، سوى أن إرادة الله تعالى التى تتدخل لتخليص الإنسان من جور أخيه الإنسان حتى ولو كانت دولا عظمى أو أفرادا أو جماعات ، فقد بدأت القضية بشمولها للحياة الفكرية العقائدية والسياسية .

أ- فعلى المستوى السياسى : سقط الاتحاد السوفيتى كقوة عظمى فى العالم بين عشية وضحاها ، وانهارت معه الفكرة الشيوعية التى فرضت نفسها بالقوة أو بالهيمنة أو بالتأثير أو بالإقناع ، وهذا الانهيار أخلى الساحة لحكم العالم بقطب واحد ، وهو الرأسمالية التى تمثلها الولايات المتحدة التى لم تجد قبولا من أحد إلا من أنظمة الحكم التى تدعمها وتقويها وتساندها بكل الوسائل .

ب- على المستوى الفكرى : أدى سقوط الشيوعية إلى سقوط شعارات كانت ترفعها أو تلتقى معها وهى الاشتراكية والعلمانية ، حيث حكم هذان الشعاران فترات طويلة فى العالم عامة والعالم الإسلامى على الخصوص . كما أن الفكرة القومية قد تهاوت بشكل عجيب ، وبعد أن فشل القوميون من تقديم أى عطاء انطوت عليه شعاراتهم ، وفى ظل قوة الحكم التى مارسوها ، وازدادت التجزئة والفرقة والعداوة بين دعاة القومية بشكل مخيف[١] .

جـ- بدا أن الإسلام هو المبدأ الوحيد الذى حافظ ـ رغم كل الهزائم التى

---

(١) سيرت إحدى الدول جيوشا لمحاربة دولة أخرى تحمل نفس الشعارات ، وتحكم تحت نفس الحزب ، وانقسم العرب عربين فى حرب الخليج ١٩٩١م حيث التقت الجيوش العربية وجها لوجه فى حرب قادها النظام العالمى الحديث (أمريكا) لتمزق هذه الأمة وتزيد فى ضعفها وغربتها وتقرب من فنائها .

منى بها دعاته ـ حافظ على وجوده ، وخرج رغم كل الجراح أقوى كثيرا مما كان ، وبرزت القوى الإسلامية ومن تحت ظل الممارسات الكثيرة للحكم كالديمقراطية ، والتعددية ، وغيرهما من الشعارات التى بدأت تطلق بعد هزيمة كافة الشعارات والمبادئ الأخرى أمام ثبات الإسلام وقوته ، وتحول الكثير من أعدائه إليه ، وانضمام الأعداد الكثيرة من الشباب ؛ بما عرف بالصحوة الإسلامية التى شملت كل المناطق والدول والجماعات والأفراد .

د - سقطت الأيديولوجيات بكافة طروحاتها ، ولم يعد منها إلا جيل العجز الذين حملوها ومات أكثرهم ولم يتمكنوا أن يورثوها لسواهم ، إن هذه الأيديولوجيات كانت طفرة كالطفرات التى مرت على العالم قبلها ، وانتهت بانتهاء الوقت المحدد لها ؛ لكن الإسلام عاد ليكون الوحيد الأقدر والأفضل على بقاء المسلمين ، ومع هذه العودة كانت التحديات قوية أيضا لدرجة أن تنوع وسائل المواجهة أصبحت أحدث وأفتك وأعتى ، ومع هدوء ردود الفعل من الحركات الإسلامية تجاه الحكام (العجز) جميعا ـ فى العالم الإسلامى عموما والعالم العربى خصوصا ـ فإن المعركة ما زالت مستعرة يبحث فيها الفريق الثانى عن مبررات مهما كانت للفتك بالفريق الأول ، ويخرج فى كل يوم رأى جديد من رئيس قديم ، ودولة برزت للوجود منذ يوم استقلالها عن الغرب ـ مهما كانت الفترة التى مضت على الاستقلال ـ حيث إن هذه الدول لم تعد تتذكر كم رزحت تحت ظل الاستعمار الذى تمكن من تحويلها على المستنقع الذى حفره لها وملأه بالماء الآسن والحيوانات الرخوية اللاصقة والنباتات المائية السامة ، والرائحة المنبعثة من أعماقه التى ملأت الجو وأفسدته ـ مع الاعتذار لدعاة البيئة وحماتها ـ يتابع أنصار الفريق الثانى طريقهم رغم كل الأباطيل والآراء المضحكة التى يطلقونها بين الحين والآخر . لدرجة أنهم أصبحوا أضحوكة بينهم قبل أن يضحك عليهم العالم . ويبقى النبع المتدفق من الغرب يمدهم بكل المبررات لاستمراريتهم وبقائهم على قيد الحياة . وهو ، أى الغرب يحمل مكاييله وموازينه ليزن بها ويكيل .

هـ- يشعر المسلمون بالمرارة والسخرية عندما يجدون معيارا مزدوجا فى سياسة الغرب والأمم المتحدة ـ والولايات المتحدة خصوصا ـ فيقولون وباستهزاء على القانون الدولى: إنه أشقر وعيونه زرقاء . لنأخذ مثلا : نظام عسكرى أحبط وصول أصوليين ـ مسيحيين ـ للسلطة بعد أن فازوا فى الانتخابات ، ليكن ذلك فى هايتى مثلا ، ستتحد الدول ضد ذلك الدكتاتور وتتدخل لصالح الحكومة المنتخبة ديمقراطيا ... إلا ... إلا... إذا كان الفائز فى الانتخابات حزباً أصولياً إسلامياً ـ فى الجزائر مثلا ـ سيكون للمجلس السياسى فى هذه الحالة فرصة طيبة ليحظى التسامح ، عما يفعله من شر صغير فالشر الكبير هو الإسلام فى أى صورة .

لنأخذ مثلا آخر : دولة احتلت دولة مجاورة بالقوة العسكرية وشرعت فى ضمها إليها ـ الكويت مثلا ـ يتدخل فى مثل هذه الحالة كل من الأمم المتحدة وحلف الناتو وأمريكا ، وبقوات هائلة لتحرير البلد المحتل . وسوف ترسم حدوده تحت تأثير عمليات مقاطعة وحصار دولى على العراق .. إلا .. إلا .. إذا كانت الدولة المحتلة « البوسنة والهرسك » عديمة البترول أو كانت الدولة المعتدية إسرائيل على فلسطين أو سوريا أو لبنان .

هل يشك أحد أن أمريكا وأوروبا كانت ستستحق الضرب على جرائمهم الوحشية وعمليات الإبادة والتطهير العرقى لو كان الضرب مسلمين ؟! هل يتصور أحد فرصة حظر السلاح على البوسنة إذا كانت مسيحية وتحت اعتداء المسلمين ؟...إلخ[1] .

٤- الشعوب الإسلامية :

الواقع اليوم يختلف تماما عن ماضيه والعقود التى سبقت فى العالمين العربى والإسلامى ، شعوب كلها عادت إلى الإسلام وبدون استثناء ، وحكام نصبوا أمام أعينهم حرب الإسلام وبأية صورة من الصور ، ونستثنى القليل القليل جدا من هذا التعميم الأخير .

---

(١) مراد هوفمان : الإسلام عام ٢٠٠٠ م ، دار الشرق ، ط ١٩٩٥م ، ص ٤١ .

لم يعد أمام الحكام من يدعمهم فكريا أو شعبيا إلا بعض المرتزقة من الكتاب وحتى من المفكرين المسلمين ، ويبرر لهم تصرفاتهم التى لن تجد من يقبلها حتى عند الذين حملوا عداوة الإسلام فى السابق أو انخرطوا ضمن أية فكرة غير إسلامية ، وبدا واضحا هذا الانفصام بين الشعوب والحكام فأصبح كل واحد منهما فى واد ، الذين هرولوا للسلام يجدون من يؤيدهم أو يحقق ما طلبوا منهم سواء على المستوى الشعبى أو الحكومى أو المؤسسى ، وأصبحت قضية السلام مع اليهود خاصة والولايات المتحدة كنبع ماء آسن لا يشرب منه أحد ، ولكن تحفر له الأخاديد والسواقى ليسير ، ولكنه حتى ماؤه يجف بين الحين والآخر . والكل ينظر إليه على أنه من المحرمات التى اقتنع بحرمتها الجميع وعلى اختلاف توجهاتهم الفكرية والأيديولوجية ، إذا لنقف هنا نسأل أنفسنا كدعاة الإسلام : أين السبيل ؟ وإلى أين ؟ ونحن كلنا على اختلاف مواقعنا فى حالة من الضعف والتمزق وغلبة العواطف على التفكير ، وقلة الإمكانيات التى يمكن أن تصل إلى الناس على اختلاف مواقفهم وانتماءاتهم . ماذا عندنا لنقول ؟ وماذا عندنا لنفعل ؟ وماذا عندنا لندعو؟ وهل كل ما على الساحة من دعاة ودعوات غير قادرة الآن بالذات على الوقوف فى وجه التحديات الداخلية من الحكام ، وغير المهتمين ، ومخلفات الأفكار الأخرى والتوجهات المختلفة للدعاة أنفسهم ، والتحديات الخارجية التى حشد بها العدو من القوى العالمية : النصرانية كلها ، والصهيونية كلها ، وحتى البراهمية التى تحولت هى الأخرى إلى صف الأعداء وبشراسة متناهية ، والبوذية التى تأثرت بالشيوعية فتوجهت لاتخاذ الإسلام عدوا فى المناطق التى قطنتها وضمتها إليها من عالم المسلمين ، أو فى الأماكن التى تمددت إليها فى جنوب آسيا فى أرض المسلمين .

ماذا نريد ؟ أسئلة تتردد على كل لسان .. وكيف سبيلنا إلى الناس ؟ لندخلهم فى هذا الدين أو حيادهم من صف الأعداء ، لينصفونا ونحن الضعفاء بكثرتنا ، وليس لدينا الحيلة فى وقت سيادة الحيل لنفعل ما نريد .

والسؤال الأكثر إلحاحا .. هل استنفدت الدعوات والحركات الإسلامية أغراضها وبدأت تردد نفسها ومنهجها وبرامجها دون مراعاة للواقع أو مسايرة الزمن ؟ وهل انقطعت السبل أمام هذه الحركات للتفاهم على برنامج لإنقاذ العالم المضطرب الآن فى جميع أرجاء المعمورة ، وقد فتحت الأبواب أمامهم ليدخلوا القرن الجديد بمبدأ وفكر ومنهج سواء للمسلمين ولغير المسلمين ؟

إن الأمر يحتاج إلى وقفات مراجعة فقط ، وليس لاستدراك الناقص والضرورى من سلبيات الماضى ، ومسايرة واستخدام الوسائل المتطورة التى قدمها لنا أعداؤنا مع احتفاظهم بأسرار تعتبر هى سر تفوقهم واستبدادهم بالأرض ، ولكن ما عندنا من إيمان ويقين ونصر من الله سيبطل سحرهم مهما احتفظوا خلفه من أسرار ، ولعل الماضى شاهد عيان على أن التفوق المادى لم يقف يوما أمام صدق الرسل والدعوات إلى الله جل جلاله ، فقد أيد الله تعالى دعاته بالمعجزات وبجنود لم يروها فكان النصر للمؤمنين ، لكن المهم هو الأخذ بالأسباب والتوصل إلى ما يمكن أن يبطل سحر السحرة وكشف أسرار التفوق.

والدعوة عامة ومستمرة ، وليست الآيات فى القرآن الكريم نزلت لوقت أو زمان أو مكان ، فقد وقفت على تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [النساء].

أى : لا تضعفوا فى طلبهم وأظهروا القوة والجلد : ﴿ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤] . تعليل للنهى المذكور قبله ، أى : ليس ما تجدونه من ألم الجراح ومزاولة القتال مختصا بكم ، بل هو أمر مشترك بينكم وبينهم ، فليسوا بأولى منكم بالصبر على حر القتال ومرارة الحرب . ومع ذلك فلكم عليهم مزية لا توجد فيهم ، وهى : أنكم ترجون من الله الأجر وعظيم الجزاء ما لا يرجونه لكفرهم وجحودهم ، فأنتم أحق بالصبر منهم ، وأولى بعدم

الضعف منهم ، فإن أنفسكم قوية لأنها ترى الموت مغنما ، وهم يرونه مغرما نظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ [آل عمران: ١٤٠] ، وقيل : إن الرجاء هنا بمعنى : الخوف ؛ لأن من رجا شيئا فهو غير قاطع بحصوله . فلا يخلو من خوف ما يرجو . وقال الفراء والزجاج : لا يطلق الرجاء بمعنى الخوف إلا مع النفى ، كقوله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [نوح] أى: لا تخافون له عظمة[1] .

ويختم هذا الدرس بالتشجيع على المضى فى الجهاد ، مع الألم والضنى والكلال . ويلمس القلوب المؤمنة لمسة عميقة موحية ، تمس أعماق هذه القلوب وتلقى الضوء القوى على المصائر والغايات والاتجاهات : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ﴾ [النساء: ١٠٤] ... إلخ الآية.

إنهن كلمات معدودات ، يضعن الخطوط الحاسمة ، ويكشفن عن الشقة البعيدة بين جبهتى الصراع . إن المؤمنين يحتملون الألم والقرح فى المعركة ، ولكنهم ليسوا وحدهم الذين يحتملونه ، إن أعداءهم كذلك يتألمون وينالهم القرح واللأواء . ولكن شتان بين هؤلاء وهؤلاء ، إن المؤمنين يتوجهون إلى الله بجهادهم ويرتقبون عنده جزاءهم ، فأما الكفار فإنهم ضائعون مضيعون ، لا يتجهون لله ، ولا يرتقبون عنده شيئا فى الحياة ولا بعد الحياة .

فإذا أصر الكفار على المعركة ، فما أجدر المؤمنين أن يكونوا هم أشد إصرارا وإذا احتمل الكفار آلامها ، فما أجدر المؤمنين بالصبر على ما ينالهم من آلام ، وما أجدرهم كذلك ألا يكفوا عن ابتغاء القوم ومتابعتهم بالقتال ، وتعقب آثارهم حتى لا تبقى لهم قوة ، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

وإن هذا لهو فضل العقيدة فى الله فى كل كفاح ، فهناك اللحظات التى تعلو

---

(١) محمد على الشوكانى : فتح القدير ـ دار ابن كثير ـ دار الكلم الطيب ، دمشق ـ بيروت ج١ ، ص٥٨٩ .

فيها المشقة على الطاقة ، ويربو الألم على الاحتمال ، ويحتاج القلب البشرى إلى مدد فائض وإلى زاد . هنالك يأتى المدد من هذا المعين ، ويأتى الزاد من ذلك الكنف الرحيم .

ولقد كان هذا التوجيه فى معركة مكشوفة متكافئة ، معركة يألم فيها المتقاتلون من الفريقين ؛ لأن كلا الفريقين يحمل سلاحه ويقاتل .

ولربما أتت على العصبة المؤمنة فترة لا تكون فيها فى معركة مكشوفة متكافئة . ولكن القاعدة لا تتغير . فالباطل لا يكون بعافية أبدا حتى ولو كان غالبا ! إنه يلاقى الآلام من داخله ومن تناقضه الداخلى ، ومن صراع بعضه مع بعض ، ومن صراعه هو مع فطرة الأشياء وطبائع الأشياء ، وسبيل العصبة المؤمنة حينئذ أن تحتمل ولا تنهار ، وأن تعلم أنها كانت تألم ، فإن عدوها كذلك يألم والألم أنواع ، والقرح ألوان . ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤] وهذا هو العزاء العميق . وهذا هو فرق الطريق : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [النساء] يعلم كيف تعتلج المشاعر فى القلوب ، ويصف للنفس ما يطيب لها من الألم والقرح[١] .

القسم الثانى

ماذا يريد المسلمون فى الوقت الحاضر نتيجة للواقع الذى وصلنا إليه الآن فقد قصد المسلمون فى أهدافهم ما يلى :

١- كان أوضح طرح قدم خلال هذا القرن متناسقا ومتكاملا ما قدمه الإمام الشهيد حسن البنا وتشابهت معه مدارس أخرى فى العالم الإسلام [٢] .

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت ، ط شرعية ٩ ، ج٢، ص٧٤٩ ـ ٧٥٠ .

(٢) من الحركات الإسلامية التى توافق طرحها مع جماعة الإخوان المسلمين الجماعة

أ- نريد أولا الرجل المسلم فى تفكيره وعقيدته ، وفى خلقه وفى عاطفته وفى عمله وتصرفه فهذا هو تكويننا الفردى .

ب- ونريد بعد ذلك البيت المسلم فى تفكيره وعقيدته ، وفى خلقه وعاطفته وفى عمله وتصرفه ، ونحن لهذا نعنى بالمرأة عنايتنا بالرجل ، ونعنى بالطفولة عنايتنا بالشباب وهذا هو تكويننا الأسرى .

جـ- ونريد بعد ذلك الشعب المسلم فى ذلك كله أيضا ، ونحن لهذا نعمل على أن تصل دعوتنا إلى كل بيت ، وأن يسمع صوتنا فى كل مكان ، وأن تتيسر فكرتنا وتتغلغل فى القرى والنجوع والمراكز والمدن والحواضر ، والأمصار ، لا نألو فى ذلك جهدا ولا نترك وسيلة .

د- ونريد بعد ذلك الحكومة المسلمة التى تقود هذا الشعب إلى المسجد ، وتحمل به الناس على هدى الإسلام من بعد كما حملتهم على ذلك بأصحاب رسول الله ﷺ أبى بكر وعمر من قبل ، ونحن بهذا لا نعترف بأى نظام حكومى لا يرتكز على أساس الإسلام ولا يستمد منه . ولا نعترف بهذه الأحزاب السياسية ، ولا هذه الأشكال التقليدية التى أرغمنا أهل الكفر وأعداء الإسلام على الحكم والعمل عليها ، وسنعمل على إحياء نظام الحكم الإسلامى بكل مظاهره وتكون الحكومة الإسلامية على أساس هذا النظام[1] .

الإسلامية التى أسسها المرحوم أبو الأعلى المودودى فى شبه القارة الهندية ، ثم انتقل مركز الثقل لها إلى باكستان ١٩٤٧م ، وتنتشر فى الهند وبنجلاديش وماليزيا ومناطق أخرى فى العالم ، وكذلك الحركة الإسلامية فى تركيا المنضوية تحت عدة أسماء مثل (السلامة ، الرفاه ، الفضيلة .. إلخ) ، وحركة « مجلس الشورى الإسلامى فى إندونسيا » وحزب النهضة فى طاجاكستان ، وحركات إسلامية أخرى فى العالم. انظر : فتحى يكن : المناهج التغييرية الإسلامية خلال القرن العشرين ومنهجية الإمام الشهيد حسن البنا ومدارس الإخوان المسلمين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٩٨م .

(١) مجموع رسائل الإمام الشهيد حسن البنا : طبع المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر ، بيروت ط١٩٨٣م ـ ١٤٠٣ هـ ، ص١٧٧ . وانظر كتابنا: حاضر العالم الإسلامى ـ مؤسسة الرسالة ، ط٢ ١٩٩٧م ، ص٧٥ فما بعد .

أما حزب التحرير فقد ركز كثيرا على الناحية الثقافية والاعتماد عليها فى إيجاد الشخصية الإسلامية أولا ، والأمة الإسلامية آخرا ، ويحرص الحزب أشد الحرص على تنمية هذه الناحية لدى المنتسبين إليه ، ويركز الحزب على إعادة الثقة بالإسلام عن طريق العمل الثقافى من ناحية ، والعمل السياسى من ناحية أخرى .

يقسم الحزب مراحل عملية التغيير إلى ثلاث مراحل على النحو التالى :

المرحلة الأولى : الصراع الفكرى : ويكون بالثقافة التى يطرحها الحزب.

المرحلة الثانية : الانقلاب الفكرى : ويكون بالتفاعل مع المجتمع عن طريق العمل الثقافى والسياسى[١] .

المرحلة الثالثة : تسلم زمام الحكم : ويكون عن طريق الأمة تسلما كاملا.

أما العقبات التى تقوم أمام قيام الدولة الإسلامية فهى :

١- وجود الأفكار غير الإسلامية وغزوها للعالم الإسلامى .

٢- وجود البرامج التعليمية على الأساس الذى وضعه المستعمر واستمرار تطبيقها حسب الطريقة التى أرادها .

٣- كون المجتمع الإسلامى يحيا حياة غير إسلامية .

٤- وجود حكومات فى الدول الإسلامية تقوم على أساس ديمقراطى وتطبيق النظام الرأسمالى كله على الشعب .

وللحزب دستور مؤلف من ١٨٧ مادة معد للدولة المتوقعة ، وقد شرح هذا الدستور شرحا مفصلا [٢] .

---

(١) ويرى الحزب أنه لابد له فى هذه المرحلة من طلب النصرة من قوى أخرى مثل رئيس دولة ، أو رئيس كتلة ، أو زعيم قبيلة ، أو من سفير أو ما شابه ذلك .

(٢) الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب : إصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامى ١٤٠٩ هـ ، ط٢ بتصرف ، وانظر كتابنا: حاضر العالم الإسلامى ، مرجع سابق ، ص٨٧ فما بعد .

وأصدرت كل الأحزاب والتنظيمات فى العالم الإسلامى أهدافها التى سعت إلى تطبيقها ، بعضها ما أمكن إظهاره إلى الوجود ، والبعض الآخر غاب فى التيه مع أصحابه . ومن خلال التنظيمات الجماعية يمكن أن نشير إلى عمل جماعتى التبليغ والسلفيين:

جماعة التبليغ: لم تطرح أى فكر أو أيديولوجية أو هدفا معينا ، ولم تصدر كتابا واحدا يحوى أهدافها أو طريقة عملها ، وإنما حفظها أتباعها وتناقلوها على جميع مستوياتهم الفكرية والعلمية والثقافية واعتنت بأمرين :

١- تذكير المسلمين بدينهم من خلال رحلات دعوية يجوب بها الدعاة إلى أدنى بلاد المسلمين وأقاصيها ، والتذكير بالإسلام دون السعى لإيجاد تنظيم معين يجمع الدعاة ، ولا يتدخلون فى القضايا السياسية أو الإقليمية أو الحكومية أو الحروب أو أى صراع مهما كان بين المسلمين والحكام ، أو بين المسلمين وأعدائهم . وطرحهم وخطابهم محدود جدا ومكرر باستمرار ، ولكن لديهم بعض الأهداف التى يحاولون تحقيقها وهى مقررة من قبل مؤسسها (الشيخ محمد إلياس الكاندهلوى ١٣٠٣ ـ ١٣٦٤ هـ) فى مبادئ ستة :

١- الكلمة الطيبة : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

٢- إقامة الصلوات .

٣- العلم والذكر .

٤- إكرام كل مسلم .

٥- الإخلاص .

٦- النفر فى سبيل الله .

٢- الدعوة لله فى بلاد غير إسلامية فى القارات الخمس ، وقد وصلوا إلى أقاصى الدنيا وأدناها والجزر والبحار والمناطق النائية ، ومن يدخل فى الدين

من غير المسلمين يبقى على محدودية الدعوة ، وليس لديهم طرق لرفع مستوى أتباعهم القدماء أو الجدد ، ولا يتابعون أحدا من أفرادهم ، فقد يرتد الكثير منهم أو يهملون واجبات الإسلام .

السلفيون: الحركة السلفية ليست طرحا جديدا على الساحة ، لكنها دعوة قديمة تسعى بين المسلمين لتحسين عقائدهم وردهم إلى دينهم ومحاربة البدع والشركيات بين المسلمين ، والتأكيد على الأخذ بالدليل فى الكثير من الأمور الجزئية والعامة ، وتطالب أتباعها بتمحيص الحقائق ، واتباع منهج السلف الصالح فى تحرى الدليل ، ولم يخرج نطاق عملها عن المسلمين ، فقد شغلتهم قضايا معينة فى سلوك المسلمين وهى : البدع والشركيات الظاهرة والخفية والتبرك بالعباد أو الجمادات أو المخلوقات ، ويؤكدون على قضايا مهما كانت جزئية ، وبذلك فقد وقفت دعوتهم عند حدود حركتهم وتواجدهم وخاصة فى العالم الإسلامى ، وقد طرحوا العديد من الكتب منها المفيد ، وأكثرها تؤكد على سنن وفروع جرى فيها الخلاف عند الفقهاء ، ولم يتوصل دارسوها إلى اتفاق معين ، وتجرأ بعضهم على الفقه الإسلامى ونتاج أربعة عشر قرنا من علم علماء الأمة ليهدموه كله بغيبة وعىّ ، أو تعصب أحمق . وهى الآن عدة اتجاهات ، وعدة أفكار ، وعدة مدارس ، وكل واحدة لها مسلكها وطريقها وشيخها ومريدوها .

والمسلمون المتدينون الذين لا ينتمون إلى تنظيم أو جماعة أو جهة ، ويركزون عملهم فى أعمال الخير ومساعدة الفقراء ، ومحاولات إصلاح البين ، وبناء المساجد والعمل الصالح وليس لهم أى أهداف أخرى غير هذه ، وآخرون يقولون كلمة الحق فى كل وقت وحين ، وهذه الاتجاهات كلها لم تحدد هدفا واحدا تسعى لتحقيقه، أو التفاهم من أجله ، أو دفع الأولويات للعمل من أجلها ومحاولات السعى بالدعوة والسبل المشروعة .

لا نستطيع أن نكرر أو نجحد أعمالا سهلة للدعوة يقدمها الحكام ، فقد خرجوا من أتون التحدى السابق للإسلام بعد أن وجدوا أن أديولوجياتهم التى اعتقدوها وحملوها لم تعد قادرة على كسب أو إقناع الشعوب ، ففكروا فى الأخذ ببعض الإسلام ؛ ومن هذه الأعمال رعاية الأوقاف وسعى بعض الدول للعمل من خلال الفقه الإسلامى والتشريع الإسلامى ، وتثبيت بعض البدائل عن الهجمة القريبة فى مجال الاقتصاد والتعليم والثقافة ، وبناء المساجد ، والمحافظة عليها وتعيين موظفين لها ، والاحتفال بالمناسبات الدينية والتأدب بالأدب الإسلامى ، وهذا التناقض واضح بين السلوك والادعاء ، ولينظر أحدنا إلى وسائل إعلام هذه البلاد الذين يحرمون ويحللون ويطلقون المحرمات فى كل وقت ، ومع هذا فإنهم يدعون بالإسلام وحمايته وتخصيص بعض الأوقات للمناسبات الدينية والمشاركة فيها أحيانا.